وقد جاءت هذه المادة (كَفَل) أيضاً فى قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ .. (٢٨) ﴾ [الحديد]

جاءت هذه الآية بعد الكلام عن عيسى ـ عليه السلام ـ والذين آمنوا به واتبعوه ، يقول تعالى : يا مَنْ آمنتم بالرسل السابقين ، وآخرهم عيسى ـ عليه السلام ـ آمنوا بالرسول الخاتم ليكون لكم كفلان أى : نصيبان وحظَّان من رحمةَ الله ، نصيبٌ لإيمانكم بعيسى ، ومَنْ سبقه من الرسل ، ونصيبٌ لإيمانكم بمحمد ﷺ .

ثم يقول تعالى فى وصفهم ﴿ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ (٨٥) ﴾ [الأنبياء] فوصف كلَّ الأنبياء بالصبر ؛ لأنهم تعرَّضوا لأنواع الاضطهاد والإيذاء والأهوال فى سبيل دعوتهم ، وصبروا على هذا كله .

﴿ وَأَدْخَلْنَـٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ (٨٦) ﴾

والرحمة هنا بمعنى النبوة ، وهى أمر عظيم وعطاء كبير ، فإنْ تحمَّلوا فى سبيله بعض المتاعب ، فلا غضاضةَ فى ذلك .

﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَـٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَـٰتِ أَن لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَـٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ (٨٧) ﴾

« ذو النون » : هو سيدنا يونس بن متى صاحب الحوت ، والنون من أسماء الحوت ، وجمعه (نينان) كحوت وحيتان ؛ لذلك

سُمِّيَ به ، وقد أُرسل يونس عليه السلام إلى أهل (نِينَوَى) من أرض الموصل بالعراق .

وقد قال النبى ﷺ لعداس : « أنت من بلد النبى الصالح : يونس ابن متى »[(١)] .

والنون أيضاً اسم لحرف من حروف المعجم ، لكن قد يوافق اسمُ الحرف اسماً لشىء آخر ، كما فى (ق) وهو اسم جبل ، وكذلك السين ، فهناك نهر اسمه نهر السين ، وهكذا تصادف أسماء الحروف أسماء أشياء .

وقوله تعالى : ﴿ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا .. (٨٧) ﴾ [الأنبياء] مادة (غضب) نأخذ منها الوصف للمفرد . نقول : غاضب وغضبان ، أمّا (مغاضب) فتعطى معنى آخر ؛ لأنها تدل على المفاعلة ، فلا بُدَّ أن أمامك شخصاً آخر ، أنت غاضب وهو غاضب ، مثل : شارك فلان فلاناً .

لكن فى أصول اللغة رجحنا جانب الفاعلية فى أحدهما ، والمفعُولية فى الآخر ، كما نقول : شارك زيدٌ عمْراً ، فالمشاركة حدثتْ منهما معاً ، لكن جانب الفاعلية أزيد من ناحية زيد ، فكلٌ واحد منهما فاعل مرة ومفعول أخرى .

واللغة أحياناً تلحظ هذه المشاركة ، فتُحمِّل اللفظ المعنيين معاً : الفاعل والمفعول ، كما جاء فى قَوْل الشاعر العربى الذى يصف السير فى أرض معقربة ، والتى إذا سِرْت فيها دون أنْ تتعرض للعقارب فإنها تسالمك ولا تؤذيك ، فيقول :

---

(١) أورده ابن هشام فى السيرة النبوية (٤٢١/٢) . وفيه : أن عداساً قال : وما يدريك ما يونس بن متى ؟ فقال رسول الله ﷺ : ذاك أخى ، كان نبياً وأنا نبى . فأكبَّ عداس على رسول الله ﷺ يقبل رأسه ويديه وقدميه .

قَدْ سَالَمَ الحياتُ منْه القَدَمَا   الأفْعُوانَ[1] والشُّجاعَ القَشْعَمَا[2]

أى : أنه سَالَم الحيات ، فالحيات سالمتْه ، فالمسالمة منهما معاً ، لكن غلب جانب الحيات فجاءت فاعلاً ؛ لأن إيذاءَها أقوى من إيذائه ، فلما أبدل من الحيات (الأفعوان والشجاع القشعما) وهما من أسماء الحيات كان عليه أنْ يأتى بالبدل مرفوعاً تابعاً للمبدل منه ، إلا أنه نصبه فقال : الأُفْعَوانَ والشجاعَ القشعمَا ؛ لأنه لاحظ فى جانب الحيات أنها أيضاً مفعولٌ .

فَممَّ غضب ذو النون ؟ غضب لأن قومه كذبوه ، فتوعدهم إنْ لم يتوبوا أنْ يُنزل بهم العذاب ، وأتى الموعد ولم ينزل بهم ما توعدهم به ، فخاف أنْ يُكذّبوه ، وأن يتجرَّأوا عليه ، فخرج من بينهم مغاضباً إلى مكان آخر ، وهو لا يعلم أنهم تابوا فأخّر الله عذابهم ، وأجّل عقوبتهم .

وفى آية أخرى يُوضّح الحق سبحانه هذا الموقف : ﴿ فَلَوْلا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ (٩٨) ﴾ [يونس]

أى : لم يحدث قبل ذلك أنْ آمنتْ قرية ونفعها إيمانها إلا قرية واحدة هى قوم يونس ، فقد آمنوا وتابوا فأجّل الله عذابهم .

إذن : خرج يونس مُغَاضباً لا غاضباً ؛ لأن قومه شاركوه ، وكانوا سبب غضبه ، كما حدث فى مسألة هجرة النبى ﷺ فرسول

(١) الأفعوان : ذَكَر الأفاعى . والقشعم : الضخم . [لسان العرب ـ مادتا : فعا ، قشعم] .

(٢) أورد ابن منظور فى لسان العرب (مادة : شجع) وعزاه للأحمر ولكن بلفظ « الشجاع الشجعما » وقال : الشجعم : الضخم منها ، وقيل : هو الخبيث المارد منها ، ثم قال : « نصب الشجاع والأفعوان بمعنى الكلام ؛ لأن الحيات إذا سالمت القدم فقد سالمها القدم ، فكأنه قال : سالم القدم الحيات ، ثم جعل الأفعوان بدلاً منها » .

الله هاجر من مكة لكنه لم يهْجرهَا ، فسُمِّيَتْ هجرة ؛ لأن أهل مكة هجروا رسول الله أولاً ، وهجروا دعوته وألجئوه أيضاً إلى الهجرة وتَرْك مكة ، فهم طرف فى الهجرة وسببٌ لها .

لذلك قال ﷺ مخاطباً مكة : « والله إنك لخير أرض الله ، وأحب أرض الله إلىَّ ، ولولا أنَّ أهلك أخرجونى منك ما خرجْتُ »[1] .

وقد أخذ المتنبى[2] هذا المعنى ، وعبَّر عنه بقوله :

إذَا ترحلْتَ عَنْ قَوْمٍ وقَدْ قَدَرُوا ... ألاَّ تُفَارِقَهُمْ فالراحلُون هُمُ

وقوله تعالى : ﴿ فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ .. (٨٧) ﴾ [الأنبياء] البعض ينظر فى الآية نظرةً سطحية ، فيقولون : كيف يظن يونس أن الله لن يقدر عليه ؟ وهذا الفَهْم ناشىء عن جَهْل باستعمالات اللغة ، فليس المعنى هنا من القدرة على الشىء والسيطرة ، ولو استوعبتَ هذه المادة فى القرآن (قَدَرَ) لوجدت لها معنى آخر ، كما فى قوله تعالى : ﴿ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ .. (٧) ﴾ [الطلاق] معنى قُدر عليه رزقه يعنى : ضُيِّق عليه .

ومنها قوله تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ .. (٣٠) ﴾ [الإسراء]

---

(١) أخرجه ابن ماجة فى سننه (٣١٠٨) ، والدارمى فى سننه (٢/ ٢٣٩) من حديث عبد الله بن عدى بن حمراء الزهرى قال : رأيت رسول الله ﷺ وهو على راحلته واقفاً بالحزورة يقول .. الحديث .

(٢) هو : أحمد بن الحسين الكندى أبو الطيب المتنبى ، الشاعر الحكيم وأحد مفاخر الأدب العربى . ولد ٣٠٣ هـ بالكوفة فى محلة « كندة » ونشأ بالشام ، ثم تنقل فى البادية يطلب الأدب وعلم العربية وأيام الناس . وفد على سيف الدولة الحمدانى صاحب حلب فمدحه ومضى إلى مصر فمدح كافور الإخشيدى ثم هجاه . قتل بالنعمانية وابنه وغلامه عام ٣٥٤ هـ (الأعلام للزركلى ١/ ١١٥) .

وقوله سبحانه وتعالى : ﴿ فَأَمَّا الإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ (١٥) وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ (١٦) ﴾ [الفجر]

إذن : فقوله : ﴿ فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ .. (٨٧) ﴾ [الأنبياء] أي : أن يونس لما خرج من بلده مُغاضباً لقومه ظنَّ أن الله لن يُضيِّق عليه ، بل سيُوسِّع عليه ويُبدله ببلده مكاناً أفضل منها ، بدليل أنه قال بعدها ﴿ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ[1] أَن لاَّ إِلَـٰهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (٨٧) ﴾ [الأنبياء] يريد منه سبحانه تنفيس كربته ، وتنفيس الكربة لا يكون إلا بصفة القدرة له .

فكيف يستقيم المعنى لو قلنا : لن يقدر عليه بمعنى : أن الله لا يقدر على يونس[2] ؟

إذن : المعنى : لن يُضيِّق عليه ؛ لأنه يعلم أنه رسول من الله ، وأن ربه لن يُسْلمه ، ولن يخذله ، ولن يتركه في هذا الكرب .

وقد وُجِدَتْ شبهة في قصة يونس - عليه السلام - في قوله تعالى : ﴿ فَلَوْلا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ (١٤٣) لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٤٤) ﴾ [الصافات]

فكيف يلبث في بطن الحوت إلى يوم يُبعثون ، مع أن يونس سيموت ، وسيأتي أجَل الحوت ويموت هو أيضاً ، أم أن الحوت سيظل إلى يوم القيامة يحمل يونس في بطنه ؟

---

(١) قال ابن مسعود : ظلمة بطن الحوت ، وظلمة البحر ، وظلمة الليل . وكذا روى عن ابن عباس وعمرو بن ميمون وسعيد بن جبير والحسن وقتادة . [قاله ابن كثير في تفسيره ٣/١٩٢] .

(٢) قال القرطبي في تفسيره (٦/٤٥١١) : « هذا قول مردود مرغوب عنه ؛ لأنه كفر . وذكر الثعلبي وقال عطاء وسعيد بن جبير وكثير من العلماء معناه : فظن أن لن نضيق عليه » .

وفات هؤلاء نظرية الاحتواء في المزيجات ، كما لو أذبتَ قالباً من السكر في كوب ماء ، فسوف تحتوي جزئيات الماء جزئيات السكر ، والأكثر يحتوي الأقل ، فقالب السكر لا يحتوي الماء ، إنما الماء يحتوي السكر .

فلو مات الحوت ، ومات في بطنه يونس ـ عليه السلام ـ وتفاعلت ذراتهما وتداخلتْ ، فقد احتوى الحوتُ يونسَ إلى أن تقوم الساعة ، وعلى هذا يظل المعنى صحيحاً ، فهو في بطنه رغم تناثر ذراتهما[1] .

﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ ﴾

استجاب الله نداء يونس ـ عليه السلام ـ ونجَّاه من الكرب ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ ﴾ [الأنبياء] إذن : فهذه ليست خاصة بيونس ، بل بكل مؤمن يدعو الله بهذا الدعاء ﴿ وَكَذَٰلِكَ .. ﴿٨٨﴾ ﴾ [الأنبياء] أي : مثل هذا الإنجاء نُنْجي المؤمنين الذين يفزعون إلى الله بهذه الكلمة : ﴿ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾ [الأنبياء] فيُذهب الله غَمَّه ، ويُفرِّج كَرْبه .

لذلك يقول ابن مسعود رضي الله عنه : « ثوِّروا القرآن » يعني : أثيروه ونقِّبوا في آياته لتستخرجوا كنوزه وأسراره[2] .

---

(١) قال قتادة في قوله تعالى ﴿ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ ﴾ [الصافات] قال : لصار له بطن الحوت قبراً إلى يوم القيامة . [أورده السيوطي في الدر المنثور ١٢٧/٧ ، وعزاه لعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم] .

(٢) في حديث عبد الله : أثيروا القرآن ، فإن فيه خبر الأولين والآخرين . قال شمر : تثوير القرآن قراءته ومفاتشة العلماء به في تفسيره ومعانيه . [لسان العرب – مادة : ثور] .

وكان سيدنا جعفر الصادق من المثوِّرين للقرآن المتأملين فيه ، وكان يُخرِج من آياته الدواء لكل داء ، ويكون كما نقول (روشتة) لكل أحوال المؤمن .

والمؤمن يتقلَّب بين أحوال عدة منها : الخوف سواء الخوف أنْ يفوته نعيم الدنيا ، أو الخوف من جبار يهدده ، وقد يشعر بانقباض وضيق فى الصدر لا يدرى سببه وهذا هو الغَمُّ ، وقد يتعرض لمكر الماكرين ، وكَيْد الكائدين ، وتدبير أهل الشر .

هذه كلها أحوال تعترى الإنسان ، ويحتاج فيها لمَنْ يسانده ويُخرجه مما يعانيه ، فليس له حَوْل ولا قوة ، ولا يستطيع الاحتياط لكل هذه المسائل .

وقد تراوده بهجة الدنيا وزُخْرفها ، فينظر إلى أعلى ممَّا هو فيه ، ويطلب المزيد ، ولا نهايةَ لطموحات الإنسان فى هذه المسألة ، كما قال الشاعر :

تَمُوتُ مع المرْءِ حَاجَاتُه ... وتَبْقَى لَهُ حَاجَةٌ مَا بَقِى

والناس تحرص دائماً على أن تستوعب نِعَم الحياة وراحتها ، وهم فى ذلك مُخْطئون ؛ لأن تمام الشىء بداية زواله ، كما قال الشاعر :

إذَا تَمَّ شَىءٌ بَدَا نَقْصُه ... تَرقَّبْ زَوَالاً إذَا قيلَ تَم

لأن الإنسان ابنُ أغيار ، ولا يدوم له حال من صحة أو مرض ، أو غنىً أو فقر ، أو حزن أو سرور ، فالتغيُّر سمةَ البشر ، وسبحان مَنْ لا يتغير ، إذن : فماذا بعد أنْ تصل إلى القمةَ ، وأنت ابنُ أغيار ؟

ونرى الناس يغضبون ويتذمرون إنْ فاتهم شىء من راحة الدنيا ونعيمها ، أو انتقصتهم الحياة شيئاً ، وهم لا يدرون أن هذا النقص

هو الذى يحفظ عليك النعمة ، ويدفع عنك عيـون الحاسدين فيُسلِّم لك ما عندك .

فتجد مثـلاً أسرة طيبة حازتْ اهتمام الناس واحـترامهم ، غير أن بها شـخصاً شريـراً سيئاً ، يعـيب الأسرة ، فهـذا الشخص هو الذى يدفع عنها عُيون الناسِ وحَسَدَهم .

وقـد أخـذ المتنبى هذا المـعنى ، وعـبَّر عنه فـى مدحـه لسـيف الدولة[1] ، فقال :

شَخَصَ الأنَامُ إلَى كَمَالِكَ فَاسْتَعِذْ   مِنْ شَـرِّ أعيُنِهِـمْ بِعَيْبٍ وَاحِدِ

نعود إلى (روشتـة) سيدنا جعـفر الصادق التى استخلصها لنا من كـتاب الله ، كـمـا يستـخلص الأطبـاء الدواءَ والعقـاقـير من كـتب الحكماء :

يقول : عجبتُ لمن خـاف ولم يفزع إلى قول الله تعالى : ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (١٧٣)﴾ [آل عمران] فإنِّـى سمعـت الله بعقـبها يـقول : ﴿فَانقَلَبُوا[2] بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ .. (١٧٤)﴾ [آل عمران]

وعجبتُ لمَنْ اغتمَّ ، ولم يـفزع إلى قوله تعالى : ﴿لاَّ إِلَـهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (٨٧)﴾ [الانبياء] فإنِّى سـمعت الله

---

(١) هو : على بن عبد الله بن حمدان أبو الحسن سيف الدولة الحمدانى ، صاحب المتنبى وممدوحه ، ولد فى ميافارقين (بديار بكر) عام ٣٠٣ هـ ، ونشا شجاعاً مهذباً على الهمة ، امتلك واسطاً ودمشق وحلب وتوفي فيها عام (٣٥٦ هـ) عن ٥٣ عاماً . الاعلام للزركلى (٣٠٣/٤) .

(٢) انقلب : رجع وتحوَّل إلى وضعه الأول ، أو إلى وضع آخر . فانقلبوا : أى : رجعوا . [القاموس القويم ١٢٩/٢] .

بعقبها يقول : ﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ (٨٨) ﴾ [الأنبياء]

وعجبتُ لمن مُكرَ به ، ولم يفزع إلى قوله تعالى : ﴿ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ .. (٤٤) ﴾ [غافر] فإنّى سمعت الله بعقبها يقول : ﴿ فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا .. (٤٥) ﴾ [غافر]

وعجبتُ لمن طلب الدنيا وزينتها ، ولم يفزع إلى قوله تعالى : ﴿ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ .. (٣٩) ﴾ [الكهف] فإنّى سمعت الله بعقبها يقول : ﴿ فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ .. (٤٠) ﴾ [الكهف]

وهكذا يجب على المؤمن أن يكون مُطْمئناً واثقاً من معيّة الله ، ويضع كما نقول (فى بطنه بطيخة صيفى) ؛ لأنه يفزع إلى ربه بالدعاء المناسب فى كل حال من هذه الأحوال ، وحين يراك ربك تلجأ إليه وتتضرع ، وتعزو كل نعمة فى ذاتك أو فى أهلك أو فى مالك وتنسبها إلى الله ، وتعترف بالمنعم سبحانه فيعطيك أحسنَ منها .

ثم يُحدِّثنا الحق سبحانه عن نبى آخر من أنبيائه ، فيقول تعالى :

﴿ وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ (٨٩) ﴾

لقد بلغ زكريا - عليه السلام - من الكبر عتياً ، ولم يرزقه الله الولد ، فتوجه إلى الله : ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا (٤) وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ[1] مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا (٥) ﴾ [مريم]

---

(١) الموالى هنا : الأقارب وبنو العم والعَصَبة الذين يلونه فى النسب . قاله القرطبى فى تفسيره (٤٢٤٨/٦) .

فلما بشَّره الله بالولد تعجَّب ؛ لأنه نظر إلى مُعْطيات الأسباب ، كيف يرزقه الله الولد ، وقد بلغ من الكبَر عتياً وامرأته عاقر ، فأراد أن يُؤكِّد هذه البُشْرى : ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ﴿٩﴾﴾ [مريم]

يُطمئنُ الله تعالى نبيَّه زكريا : اطرح الأسباب الكونية للخَلْق ؛ لأن الذى يُبشِّرك هو الخالق .

وقد تعلَّم زكريا من كفالته لمريم أن الله يُعطى بالأسباب ، ويعطى إن عزَّتْ الأسباب ، وقد تبارى أهل مريم فى كفالتها ، وتسابقوا فى القيام بهذه الخدمة ؛ لأنهم يعلمون شرفها ومكانتها ؛ لذلك أجروا القرعة على مَنْ يكفلها فأتوا بالأقلام ورمَوْها فى البحر[1] فخرج قلم زكريا ، ففاز بكفالة مريم :

﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [آل عمران]

وإجراء القرعة لأهمية هذه المسألة ، وعظَم شأنها ، والقرعة إجراء للمسائل على القَدَر ، حتى لا تتدخَّل فيها الأهواء .

فلما كفَل زكريا مريم كان يُوفِّر لها ما تحتاج إليه ، ويرعى شئونها ، وفى أحد الأيام دخل عليها ، فوجد عندها طعاماً لم يأتِ

---

(١) ذكر عكرمة والسدى وقتادة والربيع بن أنس وغير واحد ، أنهم ذهبوا إلى نهر الأردن واقترعوا هنالك على أن يلقوا أقلامهم فأيهم يثبت فى جرية الماء فهو كافلها . فألقوا أقلامهم فاحتملها الماء إلا قلم زكريا فإنه ثبت . ويقال : إنه ذهب صاعداً يشق جرية الماء . [تفسير ابن كثير ١/٣٦٣] .

به[1] : ﴿قَالَ يَـٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَـٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾﴾ [آل عمران]

وهنا مَلْحظ وإشارة إلى ضرورة متابعة ربِّ الأسرة لأسرته ، فإذا ما رأى فى البيت شيئاً لم يأت به فليسأل عن مصدره ، فربما امتدت يد الأولاد إلى ما ليس لهم ، إنه أصل لقانون « من أين لك هذا ؟ » الذى نحتاج إلى تطبيقه حين نشكّ .

التقط زكريا إجابة مريم التى جاءتْ سريعة واثقة ، تدل على الحق الواضح الذى لا يتلجلج : ﴿قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾﴾ [آل عمران]

نعم ، هذه مسألة يعرفها زكريا ، لكنها لم تكُنْ فى بُؤْرة شعوره ، فقد ذكَّرْته بها مريم : ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٣٨﴾﴾ [آل عمران]

أى : ما دام الأمر كذلك ، فَهَبْ لى ولداً يرثُ النبوة من بعدى . ثم يذكر حيثيات ضَعْفه وكبَر سنِّه ، وكوْن امرأته عاقراً ، وهى حيثيات المنع لا حيثيات الإنجاب ؛ لأن الله يرزق مَنْ يشاء بغير حساب وبغير أسباب .

وهكذا ، استفاد زكريا من هذه الكلمة ، واستفادتْ منها مريم كذلك فيما بعد ، وحينما جاءها الحَمْل فى المسيح بدون الأسباب الكونية .

وهنا يدعو زكريا ربه ، فيقول : ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [الانبياء] أى : لا أطلب الولد ليرث مُلْكى من بعدى ، فأنت خير الوارثين ترثُ الأرضَ والسماء ، ولك كل شىء .

---

(١) يعنى : وجد عندها فاكهة الصيف فى الشتاء ، وفاكهة الشتاء فى الصيف . قاله مجاهد وسعيد بن جبير وقتادة والسدى والعوفى . ذكره ابن كثير فى تفسيره (١/ ٣٦٠) .

﴿ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾[1]

فلم تكُنْ استجابة الله لزكريا أنْ يهبه الولد حال كِبَره وكوْن امرأته عاقراً ، إنما أيضاً سماه ، ولله تعالى سرٌّ في هذه التسمية ؛ لأن الناس أحرار في وَضْع الأسماء للمُسمَّيات كما قلنا فلا مانع أن نسمي فتاة زنجية (قمر) ؛ لأن الاسم يخرج عن معناه الأصلي ، ليصير علَماً على هذا المسمى . إذن : هناك فَرْق بين الاسم وبين المسمَّى .

وقد نُسمِّي الأسماء تفاؤلاً أن يكونوا كذلك ، كالذى سمَّى ولده يحيى ، ويظهر أنه كان يعاني من موت الأولاد ؛ لذلك قال :

فَسمَّيْتُه يَحيى ليحيى فلَم يكُنْ ... لرَدِّ قَضَاء الله فيه سَبيلُ

أي : سمَّيْته يحي أملاً في أن يحيا ، لكن هذا لم يردّ عنه قضاء الله .

وكذلك لما سمَّى عبد المطلب محمداً قال : سمَّيته محمداً ليُحمد في الأرض وفي السماء[2] .

---

(١) ذكر المفسرون هنا قولين :
الأول : أنها كانت عاقراً فجُعِلَتْ ولوداً . قاله أكثر المفسرين .
الثاني : كانت سيئة الخلق طويلة اللسان فأصلحها الله فجعلها حسنة الخلق . قاله ابن عباس وعطاء .
قال ابن كثير في تفسيره (٣/١٩٣) : « الأظهر من السياق الأول » .
قال القرطبي في تفسيره (٦/٤٥١٦) : « يحتمل أن تكون جمعت المعنيين فجعلت حسنة الخلق ولوداً » .

(٢) عن أبي الحكم التنوخي قال : « لما كان اليوم السابع (لميلاد رسول الله ﷺ) ذبح عبد المطلب عنه ودعا له قريشاً ، فلما أكلوا قالوا : يا عبد المطلب ، أرأيت ابنك هذا الذى أكرمتنا على وجهه ، ما سمَّيْته ؟ قال : سمَّيته محمداً . قالوا : فلم رغبت به عن أسماء أهل بيته ؟ قال : أردت أن يحمده الله تعالى في السماء وخَلْقه في الأرض . أخرجه البيهقي في « دلائل النبوة » (١/١١٣) ، وابن عساكر في « تهذيب تاريخ دمشق الكبير » (١/٢٨٢) ، ونقله ابن كثير في « البداية والنهاية » (٢/٢٦٤) .

لكن ، حين يُسمَّى يحيى مَنْ يملك الحياة ويملك الموت ، فلا بُدَّ أن يكون اسماً على مُسمَّى ، ولا بُدَّ له أن يحيا ، حتى إنْ مات يموت شهيداً ؛ لتتحقق له الحياة حتى بعد الموت .

ومعنى ﴿وَهَبْنَا .. (٩٠)﴾ [الأنبياء] أى : أعطيناه بدون قانون التكوين الإنسانى ، وبدون أسباب .

ثم يقول سبحانه : ﴿وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ .. (٩٠)﴾ [الأنبياء] فبعد أنْ كانت عاقراً لا تلد أجرينا لها عملية ربانية أعادتْ لها مسألة الإنجاب ؛ لأن المرأة تلد طالما فيها البويضات التى تكوِّن الجنين ، فإذا ما انتهتْ هذه البويضات قد أصبحت عقيماً ، وهذه البويضات فى عنقود ، ولها عدد مُحدَّد أشبه بعنقود البيض فى الدجاجة ؛ لذلك يسمون آخر الأولاد « آخر العنقود » .

إذن : وُجد يحيى من غير الأسباب الكونية للميلاد ؛ لأن المكوِّن سبحانه أراد ذلك .

لكن ، لماذا لم يقُلْ لزكريا أصلحناك ؟ قالوا : لأن الرجل صالح للإنجاب ما دام قادراً على العملية الجنسية ، مهما بلغ من الكِبَر على خلاف المرأة المستقبلة ، فهى التى يحدث منها التوقُّف .

وأصحاب العُقْم وعدم الإنجاب نرى فيهم آيات من آيات الله ، فنرى الزوجين صحيحين ، أجهزتُهما صالحة للإنجاب ، ومع ذلك لا ينجبان ، فإذا ما تزوج كل منهما بزوج آخر ينجب ؛ لأن المسألة ليست (آليّة) ، بل وراء الأسباب الظاهرة إرادة الله ومشيئته .

لذلك يقول تعالى : ﴿لِّلَّهِ مُلْكُ السَّمَـٰوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ (٤٩) أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا .. (٥٠)﴾ [الشورى]

ثم تُوضّح الآيات سبب وعلّة إكرام الله واستجابته لنبيه زكريا - عليه السلام : ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ۝٩٠﴾ [الأنبياء]

هذه صفات ثلاث أهّلَتْ زكريا وزوجته لهذا العطاء الإلهي ، وعلينا أن نقف أمام هذه التجربة لسيدنا زكريا ، فهي أيضاً ليستْ خاصة به إنما بكل مؤمن يُقدِّم من نفسه هذه الصفات .

لذلك ، أقول لمن يُعاني من العقم وعدم الإنجاب وضاقتْ به أسباب الدنيا ، وطرق باب الأطباء أن يلجأ إلى الله بما لجأ به زكريا - عليه السلام - وأهله ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ۝٩٠﴾ [الأنبياء] خذوها (روشتة) ربانية ، ولن تتخلف عنكم الاستجابة بإذن الله .

لكن ، لماذا هذه الصفة بالذات ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ .. ۝٩٠﴾ [الأنبياء] ؟

قالوا : لأنك تلاحظ أن أصحاب العُقْم وعدم الإنجاب غالباً ما يكونون بُخَلاء مُمْسكين ، فليس عندهم ما يُشجِّعهم على الإنفاق ، فيستكثرون أن يُخرجوا شيئاً لفقير ؛ لأنه ليس ولده .

فإذا ما سارع إلى الإنفاق وسارع في الخيرات بشتى أنواعها ، فقد تحدَّى الطبيعة، وسار ضدها في هذه المسألة ، وربما يميل هؤلاء الذين ابتلاهم الله بالعُقْم إلى الحقد على الآخرين ، أو يحملون ضغينة لمن ينجب ، فإذا طرحوا هذا الحقد ونظروا لأولاد الآخرين على أنهم أولادهم ، فعطفوا عليهم وسارعوا في الخيرات ، ثم توجَّهوا إلى الله بالدعاء رَغَباً ورَهَباً ، فإن الله تعالى وهو المكوِّن الأعلى يخرق لهم النواميس والقوانين ، ويرزقهم الولد من حيث لا يحتسبون .

ومعنى : ﴿وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ۝٩٠﴾ [الأنبياء] يعني : راضين بقدرنا

فيهم ، راضين بالعُقْم على أنه ابتلاء وقضاء ، ولا يُرفع القضاء عن العبد حتى يرضى به ، فلا ينبغي للمؤمن أنْ يتمرَّدَ على قدر الله ، ومن الخشوع التطامن لمقادير الخَلْق في الناس .

﴿ وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩١﴾ ﴾

ولك أنْ تسأل : لماذا يأتي ذِكْر السيدة مريم ضمن مواكب النبوة ؟ نقول : لأن النبوة اصطفاء الله لنبي من دون خَلْق الله ، وكوْنه يصطفي مريم من دون نساء العالمين لتلد بدون ذكورة ، فهذا نوع من الاصطفاء ، وهو اصطفاء خاص بمريم وحدها من بين نساء العالمين ؛ لأن اصطفاء الأنبياء تكرَّر ، أمَّا اصطفاء مريم لهذه المسألة فلم يتكرر في غيرها أبداً .

وقوله تعالى : ﴿ وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا .. ﴿٩١﴾ ﴾ [الأنبياء] يعني : عَفَّتْ وحفظتْ فَرْجها ، فلم تمكِّن منها أحداً[1] .

ومعنى : ﴿ فَنَفَخْنَا فِيهَا[2] مِن رُّوحِنَا .. ﴿٩١﴾ ﴾ [الأنبياء] يعني :

---

(١) قال القرطبي في تفسيره (٤٥١٨/٦) : « قيل : إن المراد بالفرج فرج القميص ، أي : لم تعلق بثوبها ريبة ، أي : أنها طاهرة الأثواب . وفروج القميص أربعة : الكُمَّان والأعلى والأسفل . قال السهيلي : فلا يذهبن وهمك إلى غير هذا ، فإنه من لطيف الكناية ، لأن القرآن أنزه معنى ، وأوزن لفظاً ، وألطف إشارة ، وأحسن عبارة من أن يريد ما يذهب إليه الوهم » .

(٢) أي : في جيب درعها . قاله أبو يحيى زكريا الأنصاري في (فتح الرحمن) (ص ٣٧١) وقال قتادة : نفخ في جيبها . وقال مقاتل : نفخ في فرجها . ذكرهما السيوطي في الدر المنثور (٦٧١/٥) . والدرع : ثوب المرأة .

مسألة خاصة به ، خارجة على قانون الطبيعة ، فليس في الأمر ذكورة أو انتقاء ، إنما النفخة التي نفخها الله في آدم ، فجاءت منها كل هذه الأرواح ، هي التي نفخها في مريم ، فجاءت منها روح واحدة . فالروح هي نفسها التي قال الله فيها : ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي .. (٢٩) ﴾ [الحجر]

ثم يقول تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ (٩١) ﴾ [الأنبياء] يعني : شيئاً عجيباً في الكون ، والعجيبة فيها أن تلدَ بدون ذكورة ، والعجيبة فيه أن يُولَد بلا أب ، فكلاهما آية لله ومعجزة .

ثم يقول الحق سبحانه بعد سَرْد لقطات من موكب الأنبياء :

﴿ إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ (٩٢) ﴾

الأمة : الجماعة يجمعها رباط واحد من أرض أو مُلْك مَلِك أو دين ، كما جاء في قوله تعالى : ﴿ وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ .. (٢٢) ﴾ [الزخرف] يعني : على دين .

فالمراد : هذه أمتكم أمةً حال كَوْنها أمة واحدة ، لا اختلافَ فيها[1] والرسل جميعاً إنما جاءوا ليتمموا بناءً واحداً ، كما قال ﷺ : « إن مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بيتاً فأحسنه وأجمله ، إلا موضع لبنة من زاوية ، فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون : هلاّ

(١) قال القرطبي في تفسيره (٤٥١٩/٦) : « لما ذكر الأنبياء قال : هؤلاء كلهم مجتمعون على التوحيد ، فالأمة هنا بمعنى الدين الذي هو الإسلام . قاله ابن عباس ومجاهد وغيرهما » .

وُضعت هذه اللبنة ؟ قال : فأنا اللبنة ، وأنا خاتم النبيين »[1] .

والمعنى أن به ﷺ تتم النبوة وتختم .

وتُطلَق الأمة على الرجل الذى يجمع خصال الخير كلها ؛ لأن الله تعالى بعثر خصال الخير فى الخَلْق ، فليس هناك مَنْ هو مَجْمع مواهب وفضائل ، إنما فى كل منا ميزةٌ وفضيلةٌ فى جانب من الجوانب ؛ ليتكامل الناس ويحتاج بعضهم إلى بعض ، ويحدث الترابط بين عناصر المجتمع ، هذا الترابط يتم إمَّا بحاجات تطوُّعية ، أو حاجات اضطرارية .

فلو تعلَّم الناس جميعاً وتخرَّجوا فى الجامعة فَمنْ للمهَن والحِرَف الأخرى ؟ مَنْ سيكنس الشوارع ، ويقضى مثل هذه الأمور ؟ لو تعطلتْ مجارى الصرف الصحى ، أيجتمع هؤلاء الدكاترة والأساتذة لإصلاحها ، ولو أصلحوها مرة فهذا تطوُّع .

أمَّا المصالح العامة فلا تقوم على التطوع إنما تقوم على الحاجة والاضطرار ، ولولا هذه الحاجة لما خرجَ عامل الصرف الصحى فى الصباح إلى هذا العمل الشاقّ المنفّر ، لكن كيف وفى رقبته مسئولية أسْرة وأولاد ونفقات ؟

وسبق أنْ قُلْنا : ينبغى ألاَّ يغترَّ المرء بما عنده من مواهب ومميزات ، ولا يتعالى بها على خَلْق الله ، وعليه أنْ يسأل عَمَّا عند الآخرين من مواهب يحتاج هو إليها ، ولا يؤديها بنفسه .

إذن : الحاجة هى الرابطة فى المجتمع ، ولو كانَ التطوّع

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٥٣٥) ، ومسلم فى صحيحه (٢٢٨٦) كتاب الفضائل (حديث ٢٢) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

والتفـضّل فلن نحقق شيـئاً ، فلو قلنا للعامل : تفـضل بكنس الشارع لوجدَ ألْـفَ عذر يعتـذر به ، أما إنْ كـان أولاده سيـموتون جـوعاً إن لم يعمل فلا شكَّ أنه سيُسرع ويُبادر .

فالحقيـقة أن كل فرد فى المجتمع لا يخدم إلا نـفسه ، فكما تنفع الآخرين تنتفع بهم ؛ لـذلك إياك أنْ تحسد صاحب التفـوق على تفوّقه فى أمر من الأمور ؛ لأن تفوقه فى النهاية عائد عليك .

وكما نقول هذه المسائل فى أمور الدنيا نقولها فى أمور الآخرة ، حـين نرى صـاحب التـديُّن ، وصـاحب الـخُلق والالتـزام لا نهـزأ به ولا نسـخر منه ، كـما يحلو لـلبعض ؛ لأن صـلاحه سـيعـود عليك ، وسوف تنتفع بتديُّنه واستقامته ولعلنا نُرزَق بسبب هؤلاء .

وقد يكون فى البيت الواحد فُتوات وأذكياء ومتعلمون وفيهم مُعوّق أو مـجنون أو مجـذوب ، فتـرى الجـميع يحـتـقرونه ، ويُهـوِّنون من شانه ، أو تراه منبـوذاً بين هؤلاء مُبْعَداً ، لا يشـرُف بمعرفتـه أحد ، وربما يعيشون جميعاً فى ظِلّه ويُرزَقون كرامة له .

وكثيراً ما نرى الناس يغضبون وينقمون على قضاء الله إن رزقهم بمولود فـيه عـيب أو إعاقة ، ووالله لو رضـيتَ به وتقبلْتَ قـضاء الله فيه ، لكان هو الظل الظليل لك .

فهـؤلاء خُلقوا هكذا لحـكمة ، حتى لا نـتمرد على صَنْـعة الله فى كَوْنه ، وحتى يشعر أهل النعمة والسلامة والصحة بفضل الله عليهم ، ولنعلم أن الله تعـالى لا يسلب شيـئاً من عبـده إلاّ وقد أعطاه عِـوَضاً عنه .

ولك أن تلاحظ مثـلاً أحوال الناس المجـاذيب الذين تراهم فى أىّ

مكان مُهملين يستقلهم النـاس ، وينفرون من هيئتهم الرثَّة ، ومع ذلك ترى أصحاب الجـاه والسلطان إذا نزلتْ بهم ضائقة وأعيَتْـهم الأسباب يلجئـون لمثل هؤلاء المجاذيب يلتـمسون منهم البركـة والدعاء ، وهذا فى حَدِّ ذاته أسـمى ما يمكن أن يتطلع إليه أهـل الجاه وأهل السلطان والنفوذ ، أن تكون كلمتهم مسمـوعةً وأمرهم مُطاعاً ، وأن يلجأ الناس إليهم كما لجئوا إلى هذا المجذوب المسكين .

فإذا ما أجرى الله الخير على يد هذا الـشيخ المجذوب ترى السيد العظيم يتـمـحك فـيه ، ويدعـوه إلى طعـامـه ، ويدفع عنه أذى الناس ويحـتضنه ، لأنه جـرَّب وعلم أن لديه فـيضـاً من فـيض الله وكرامـة يختص الله بها مَنْ يشاء من عباده ، ونحن جـميعاً عباد الله ليس فينا مَنْ هو ابن لله ، أو بينه وبين الله قرابة .

وإنْ كان العقل هو أعزّ ما يعتز به الإنسان ، وهو زينته وحليته ، فلك أن تنظر إلى المجنون الذى فقد العـقل ، وحُرِم هذه الآلة الغالية ، وترى الناس يشيرون إليه : هذا مجنون ، نعم هو مجنون ، لكن انظر إلى سلوكه : هل رأيتم مجنوناً يسرق ؟ هل رأيتم مجنوناً يزنى ؟ هل رأيتم مجنوناً انتحر ؟

إذن : مع كونه مجنوناً إلا أنه مدرك لنفسه تماماً ؛ لأن خالقه عز وجل وإنْ سلبه العـقل إلا أنه أعطاه غريزة تحكمه كمـا تحكم الغريزة الحيوان ، وهل رأيتم حماراً ألقى بنفسه مثلاً أمام القطار ؟

إذن : علينا ألاَّ نُحقِّر هؤلاء ، وألاَّ نسـتقل بهم فقد عوَّضـهم الله عما سلبـه منهم ، ومنَّا مَنْ يـسـعى ليـصل إلى مـا وصلوا هـم إليـه ولا يستطيع ، ومَنْ منَّا لا يتـمنى أن يكون مثل هذا المجذوب الذى يـتمسَّح الناس فيـه ، ويطلبون منه البركـة والدعاء ؟ وأىُّ عظمة يطلبهـا الإنسان

فوق هذا ؟ ويكفى هذا أنه لا يُسألُ عمّا يفعل فى الدنيا ، ولا يُسأل كذلك فى الآخرة .

نعود إلى قول الله تعالى : ﴿إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً .. ﴿٩٢﴾﴾ [الأنبياء] فمن معانى أمة : الرجل الذى جمع خصال الخير كلها ؛ لذلك وصف الله نبيه إبراهيم بأنه أمة ، فقال : ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً[1] .. ﴿١٢٠﴾﴾ [النحل]

يعنى : جمع من خصال الخير مَا لا يوجد إلا فى أمة كاملة .

والأمة لا تكون واحدة ، إلا إذا صدر تكوينها المنهجى عن إله واحد ، فلو كان تكوينها من متعدد لذهب كُلُّ إله بما خلق ، ولعلاَ بعضهم على بعض ، ولفسد الحال . إذن : كما قال سبحانه : ﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَٰوَاتُ وَالْأَرْضُ .. ﴿٧١﴾﴾ [المؤمنون]

فلا تكون الأمة واحدة إلا إذا استقبلت أوامرها من إله واحد وخضعت لمعبود واحد ، فإنْ نسيتْ هذا الإله الواحد تضاربتْ وتشتتتْ .

وكأن الحق سبحانه يقول : أنتم ستجربون أمة واحدة ، تسودون بها الدنيا وتنطلق دعوتكم من أمة أمية لا تعرف ثقافة ، ولا تعرف علماً ، ولم تتمرس بحكم الأمم ؛ لأنها كانت أمة قبلية ، لكل قبيلة قانونها وسيادتها وقيادتها .

ثم ينزل لكم نظام يجمع الدنيا كلها بحضاراتها ، نظام يطوى تحت جناحه حضارة فارس وحضارة الروم ويُطوِّعها ، ولو أنكم أمة

---

(١) سُئل ابن مسعود : ما الأمة ؟ قال : الذى يُعلِّم الناس الخير . وقال قتادة : إمام هدى يُقتدَى به ، وتُتبع سنته . [الدر المنثور للسيوطى ٥/١٧٦] .

مثقفة لقالوا قفزة حضارية ، إنما هذه أمة أمية ، ونبيها أيضاً أُمّى إذن : فلا بُدَّ أن يكونَ المنهج الذى جاء به ليسلب هذه الحضارات عِزَّها ومجدَها منهجاً أعلى من كل هذه المناهج والحضارات .

ثم يقول تعالى : ﴿وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾﴾ [الأنبياء] أى : التزموا بمنهجى لتظلوا أمة واحدة ، واختار صفة الربوبية فلم يقُلْ : إلهكم ؛ لأن الرب هو الذى خلق ورزق وربى ، أمّا الإله فهو الذى يطلب التكاليف .

فالمعنى : ما دُمْتُ أنا ربكم الذى خلقكم من عَدَم ، وأمدكم من عُدْم ، وأنا القيوم على مصالحكم ، أكلؤكم بالليل والنهار ، وأرزق حتى العاصى والكافر بى ، فأنا أَوْلَى بالعبادة ، ولا يليق بكم أن أصنع معكم هذا كله وتذهبون إلى إله غيرى ، هذا منطق العقل السليم ، وكما يقولون (اللى ياكل لقمتى يسمع كلمتى) .

ومن العبادة أن تطيع الله فى أمره ونَهْيه ؛ لأن ثمرة هذه الطاعة عائدة عليك بالنفع ، فلله تعالى صفات الكمال الأزلىّ قبل أنْ يخلق مَنْ يطيعه ، فطاعتك لن تزيد شيئاً فى مُلْك الله ، ومعصيتك لن تنتقص منه شيئاً . إذن : فالأمر راجع إليك ، وربك يُثيبك على فعل هو فى الحقيقة لصالحك .

لكن ، هل سمع الناس هذا النداء وعملوا بمقتضاه ، فكانوا أمة واحدة كهذه الأمة التى أدخلتْ الدنيا فى رحاب الإسلام فى نصف قرن ؟ هذه الأمة التى ما زلنا نرى أثرها فى البلاد التى تمردتْ على العروبة ، وعلى لغة القرآن ، ومع ذلك هم مسلمون على لغاتهم وعلى حضارتهم ، إن الدين الذى يصنع هذا ، والأمة الواحدة التى تحمّلتْ هذه المسئولية ما كان ينبغى أن نتخلى عنها .

والسؤال : هل بقيت الأمة الواحدة ؟ تجيب الآيات :

﴿ وَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡۖ كُلٌّ إِلَيۡنَا رَٰجِعُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾

أى : صاروا شيعاً وأحزاباً وجماعات وطوائف ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ .. ﴿١٥٩﴾ ﴾ [الانعام]

لماذا ، لست منهم فى شىء ؟ لأنهم يقضون على واحدية الأمة ، ولا يقضون على واحدية الأمة إلا إذا اختلفتْ ، ولا تختلف الأمة إلا إذا تعددتْ مناهجها ، هنا ينشأ الخلاف ، أمَّا إنْ صدروا جميعاً عن منهج واحد فلن يختلفوا .

وما داموا قد تقطعوا أمرهم بينهم ، فصاروا قِطَعاً مختلفة ، لكل قطعة منهج وقانون ، ولكل قطعة تكاليف ، ولكل قطعة راية ، وكأن آلهتهم متعددة ، فهل سيُتركون على هذا الحال ، أم سيعودون إلينا فى النهاية ؟

﴿ كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾ [الانبياء] إذن : أنتم أمة واحدة فى الخَلْق من البداية ، وأمة واحدة فى المرجع وفى النهاية ، فلماذا تختلفون فى وسط الطريق ؟

إذن : الاختلاف ناشىء من اختلاف المنهج ، وكان ينبغى أن يكون واضع المنهج واحداً . وقد جاء النبى ﷺ خاتماً للرسالات ، وجاءت شريعته جامعة لمزايا الشرائع السابقة ، بل وتزيد عليها المزايا التى تتطلبها العصور التى تلى بعثته .

فكان المفروض أن تجتمع الأمة المؤمنة على ذلك المنهج الجامع

المانع الشامل ، الذى لا يمكن أن يستدرك عليه ، وبذلك تتحقق وحدة الأمة ، وتصدر فى تكليفاتها عن إله واحد ، فلا يكون فيها مَدْخَل للأهواء ولا للسلطات الزمنية أو الأغراض الدنيئة .

لذلك ، إذا تعددت الجماعات التى تقول بالإسلام وتفرقت نقول لهم : كونوا جماعة واحدة ، وإلا فالحق مع أىِّ جماعة منكم ؟! لأن الله تعالى خاطب نبيه ﷺ بقوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ .. (١٥٩) ﴾ [الأنعام]

ولا يتفرق الداعون لدعوة واحدة إلا باتباع الأهواء والأغراض ، أما الدين الحق فهو الذى يأتى على هوى السماء ، موافقاً لما ارتضاه الله تعالى لخَلْقه .

لقد انفضَّ المؤمنون عن الجامع الذى يجمعهم بأمر الله ، فانفضت عنهم الوحدة ، وتدابروا حتى لم يَعُدْ يجمعهم إلا قَوْلُ « لا إله إلا الله محمد رسول الله » أما مناهجهم وقوانينهم فقد أخذوها من هنا أو من هناك ، وسوف تعضهم هذه القوانين ، وسوف تخذلهم هذه الحضارات ، ويرون أثرها السىء ، ثم يعودون فى النهاية إلى الإسلام فهو مرجعهم الوحيد ، كما نسمع الآن نداء لا حلَّ إلا الإسلام .

نعم ، الإسلام حَلٌّ للمشاكل والأزمات والخلافات والزعامات ، حَلٌّ للتعددية التى أضعفتْ المسلمين وقوَّضَتْ أُخوَّتهم التى قال الله فيها : ﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا .. (١٠٣) ﴾ [آل عمران]

ووالله ، لو عُدْنا إلى حبل الله الواحد فتمسَّكنا به ، ولم تلعب بنا الأهواء لَعُدْنا إلى الأمة الواحدة التى سادتْ الدنيا كلها .